الشيخ العدوى صادق

للدكتور مصطفى كمال وصفى

من أهالى بنى عدى بصعيد مصر من نسل الإمام عمر رضى الله عنه . ومن علماء الأزهر . دمرداشى الطريقة . عمل مدة كبيرة شيخا لمسجد جده الإمام أبى البركات أحمد الدردير المالكى . مات فى يوم الأحد ٢٦ من ذى العقدة عام ١٣٧٦ الموافق ٢٣ من يونيو ١٩٥٧ وهو فوق الخمسين ودفن بقرافة المجاورين . وترك ولديه اسماعيل الذى خلفه فى إمامه مسجد الدردير . ومحمد الذى يعمل فى المطبعة الأميرية .

زاهد تقى ورع عالم عامل كامل ثقة شيخ مربى سالك . وكان أظهر ما فيه تواضعه وصدق فراسته وحضور بديهته وخفة روحه . وكان نحيلا هضيم الوجه خفيف الحركة قصير القامة . اسمر اللون .

صحبته فى السنتين الأخيرتين من حياته فأفدت منه فائدة قصوى . وانطبعت روحى بأنواره ، تعلمت منه ذوق الصوفية ومواجيدهم .

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته بلا حساب .

رأيته بعينه وشكله فى الرؤيا مثل أن أراه . إذ رأيت جمعاً كأنهم فى مدرسة يقرأ فيهم رجل بصوت طروب مسرور ، وهم مقبلون حوله يستزيدونه فقلت له « إذا كنت الشيخ صادق العدوى فإنى لا أبحث إلا عنك » قال لى بل أنا سكرتيره ولكن انتظر حتى يفرغ الشيخ من اجتماع عنده فتقابله . فلما أخبرنى بالمقابلة وجدت الشيخ صادق فى الرؤيا طيفا كبيراً هائلا بين السماء والأرض عليه جلالة وهيبة وقال لى سكرتيره تراه فتحسبه أمامك وهو فى الحقيقة فى مكة أو فوق الهرم الأكبر . فلما قابلت الشيخ صادق العدوى بعد ذلك وجدته هذا السكرتير الذى رأيته فى المنام .

ولقد وعيت من نصحه وإرشاده الشىء الكثير . كما رأيت من بركته ما صرت أعجب له الآن .

أذكر من ذلك أن قريبا لى ضاقت به الحال بعد أن حصل على مؤهل كبير (دكتوراه) ولم يوفق إلى تعيين مناسب . فجاءنى ليلا فى وقت متأخر وقال لى لقد

ضاقت الدنيا فى وجهى فاصحبنى إلى الشيخ صادق لعلى أسمع منه مايفرج كربتى : فذهبنا للشيخ وقصصنا عليه حال قريبى هذا . فقال له « أتريد مالا ومركزاً . . أذن سنبعثك إلى الحجاز عامين . ثم تعين مدرساً فى الجامعة » وظننا فى بادىء الأمر أنه يعرف من يرسله إلى السعودية . ولكنه بطبيعة الحال لم يكن ذاك ما يقصد . فقد مات الشيخ بعد ذلك بقليل . أما صديق فبالضبط وفقة الله — بتدبير غريب — إلى ماقاله الشيخ .

ولم يكن يتنبأ لأحد بشىء إلا حدث له . تنبأ لى بأنى سأكون مستشاراً وكان وقتها بينى وبين ذلك أمداً بعيداً . ولكن حكمته لم تخب فى الوقت الذى حدده . وقال لسيدة أعرفها ستكونين « أستاذة » وكانت وقتها زوجة مستقرة فى بيت زوجها من زمن بعيد ، فإذا بزوجها ينقلب عليها فجأة ويطلقها . وإذا بها تبدأ حياة دراسية من جديد فتحصل على التوجيهية بعدسته عشر عام من تركها الدراسة وتدخل كلية الآداب. لم يقل لى عن شخص خيراً إلا وتحق ظنه ولم يحذرنى من شخص إلا وصدق . أذكر أن إحدى الفتيات خطبت ، وأرادت أن تستأنس برأى الشيخ . ولم يكن بطبيعة الحال قد رأى الخطيب أو له به سابق معرفة فقال لها « ده هليهلى . . . يدخل الحارة يقول كل الحارة معزومة الجدى اللى عندى . . . ولا عنده جدى ولا حاجة ! » ولم يمض أسبوع حتى تكشف الرجل عن هذا الخلق تماما .

دخلت معه مرة إلى مقام سيدى الدردير . فصاح لدى الباب « ياسيدى الدردير . مصطفى أهو » وفى الليل رأيت رؤيا أننا بهذه الصورة وأن سيدى الدردير يقابلنا بالتحية . وبعد مدة قابلت رجلا يشبه الصورة التى رأيتها للدردير فى المنام إلا أن بها فروقا معينة . فقلت له « كان هذا الرجل يشبه سيدى الدردير » فقال لى غير أن به فروقا هى كذا وكذا . . مما يطابق ما رأيت .

كان داره يمتلىء ليل نهار بالوافدين . وكان يقول « هذه هى مهنتى يلجأ الناس إلى فى كل وقت لعرض مشاكلهم . ربما أكون فى جوف الليل فأوقظ لأصلح زوجا على زوجها . ربما يأخذوننى من على غذائى لأمر طارىء . . هكذا أنا مكلف وهذه هى وظيفتى » وكان طرف ثالث فى كل مشكلة تعن لأى محب له . يتحمس له ، وهذا يأتيه يعرض عليه أمره . هذا يريد أن يتزوج . . أى الأوقات أنسب للعقد . هذا يريد أن يتوظف هل يقبل هذه الوظيفة . . وهكذا . وكان الناس يحصلون منه بأية وسيلة على أى شىء . ربما مصحف « شوية ملح » زجاجة عطر بلدى . كتاب عليه توقيعه .

دعاء مأثور . وكان هو كالبحر المديد فى عطائه ، رأيته يهب فقيراً عباءة جديدة لا يقل ثمنها عن خمسة عشر جنيها يهب آخر « كاكولتين » وجلاليب . . وكل ما تصل إليه يده ينفقه على الناس ، وكان آخر ما أنفقه فى حياته قبل موته بساعات . إذ أتى إليه فقير يشكو ، فأعطاه عشرون قرشا هى كل ما معه . وذهب إلى الله بلا شىء معه .

قرأت عليه كتاب الإمام الرفاعى قبل أن يموت . وقرظه فكان ذلك آخر ما كتب فى حياته وبعدها ثقل عليه المرض .

وقد قال لى الطبيب أنه مرض بالتيفوئية . وقال لى الشيخ « الناس مش بتسبنى أرتاح » . فقلت له ياسيدنا أقول لهم ينصرفوا . وتعمل تعليمات . فقال لى سيبهم . هذه هى مهنتى فى الحياة ووظيفتى أن أكون تحت أمرهم .

لله عباد فى الأرض . فإذا كان الشيخ صادق يجنى من وراء ذلك إلا التعب المتصل والنفقة الزائدة البالغة التى لا أدرى كيف كان يواجهها . عشرات من زجاجات الكازوزة ، وأقداح الشاى والقهوة والقرفة والكحك والفول واللب وكل ما يقدم للضيوف دائما مبذولة لضيوفه الذين لا ينقطعون . ويتردد عليه الناس من أرقى الطبقات وأعلى الثقافات ، إلى أفقرهم وضعفهم ذكرا . فكان يعطى كل على مقداره يعظم الكبير ويتفطر قلبه وحنانه للفقير .

وكان يكره الثناء ويغضب منه .

تصادف مرة أن عثر على غلام ضال فتبين أنه ابن أحد أصدقائه فصحبه معه إلى منزله ليوصله لأبيه . فلما جاء الوالد يعرض على الشيخ مشكلته أعطاه ولده . وفى الأيام التالية تكرر مثله هذا بصورة مشابهه عل وجه المصادفة . فشاع بين الناس أن « سر » الشيخ صادق يجيب العيال النايهة ، فغضب رحمه الله من الذين قصدوه ليرشدهم لأولادهم وقال لهم « ياناس أمركم غريب . . مش حاتسيبوا الجهل ده بقا » . واستاء من ذلك أشد الاستياء .

فقدناه على غرة ولم يكن قد جاوز الخمسين بكثير فترك لنا فراغا يتعذر ملؤه . فأين هى الواحة النضرة والظل الظليل الذى كنا نأوى إليه فى صحراء هذه الحياة القاحلة نروى منه الظمأ ونستظل .

هدانا الله إلى مثله ، وعوض الإسلام عنه خيراً . فمثل هؤلاء الدعاة المخلصين الذين يدلون على الله بحسن سجاياهم وتضحياتهم ويشيعون فى الناس روح الخير ، ويعلمونهم حسن الخلق وحسن الدين بما يتصرفون به أمامهم ، ضرورة لابد منها للدلالة على الله والارشاد إليه .

رحمه الله ورحمنا أجمعين